الأدب الإسلامي .. وريادة التوجيه

بقلم: د. عبدالباسط بدر

إلى أي مدى ينطلق الأدب في مجرى الحياة الواقعية، وما المقدار الذي يمكن أن يحمله من الحقائق دون أن يفقد «أدبيته»؟ وإلى أي مدى نقبل منه أن يكون منبر توجيه وإرشاد؟؟

تدور هذه الأسئلة وأمثالها بين النقاد، وتثور حولها خصومات ومعارك، ويتوزع الدارسون والجمهور أحياناً بين صفين أو أكثر مختلفين متقابلين. بعضهم لا يريد من الأدب السحر البياني الذي يخلفه في النفس، ويتهم كل توجه إلى الحياة الواقعية أو الخطاب الفكري بالإساءة إلى أدبية النص، وربما يخرجه من مساحة الأدب قاطبة إلى ساحة الفكر، بينما يرى بعضهم في انغماس الأدب في قضايا الناس وظيفة أساسية من وظائفه، ويرى أن الواجب عليه أن يكون منبر توجيه وإرشاد، فالأديب في رأيهم صاحب موقف ريادي في مجتمعه، لا يجوز أن يتخلى عنه، ولئن خلا إبداعه من آثار هذا الواجب فإن أدبه خواء أو أقرب إلى الخواء.

وبعيداً عن تطرف بعض الدارسين في هذا الجانب وذاك يجري تيار الأدب متواصلاً متجدداً، يتلون بألوان مبدعيه، ويتأثر بتوجهاتهم ورؤاهم. فمن يرى فيه موقع ريادة للمجتمع يجعل النصوص التي يبدعها نصوص ريادة، تحمل هموم الآخرين، وتتلمس مشكلاتهم، وتقترح الحلول الناجعة، ومن يرى فيه رحلة خيال محض يبتعد به إلى عوالم ضبابية، لا تمسك فيها شيئاً واضحاً محدداً، فالمشاعر سيالة، أحزاناً أو أفراحاً، بسبب قليلاً، وبدون سبب غالباً، وصور الطبيعة أو المرأة أو الذات هي الطاغية..

وهكذا يبدع المبدعون كما تشاء قرائحهم، وكما توجهها ثقافاتهم وانتماءاتهم الفكرية والعقدية، ويختصم المختصمون: نقاداً ودارسين.. وكل منهم يجد في تيارات الأدب المتوازية وربما المتمازجة زماناً ومكاناً بغيته، ويجد حجته وشواهده فمن شاء النموذج الريادي التوجيهي وجده، ومن شاء النموذج الهروبي الحالم وجده، ومن أراد عيوباً في هذا أو ذاك وجدها.. وكأنما الحال على النحو الذي قاله أبو الطيب المتنبي:

أنام ملء جفوني عن شواردها ... ويسهر الخلق جراها ويختصم

وأية دراسة فاحصة للإبداع من جهة والنقد والدراسات الأدبية من جهة أخرى ستقف على هذه الازدواجية. وستنتهي إلى أن الخصومات والكلام الطويل حول مهمة الأدب والأديب، وغائيته أو لا غائيته سفسطة لا تقدم ولا تؤخر شيئاً في عالم الإبداع، حتى في ظروف الضغط على الأدباء وتوجيه الأديب بما يشبه القسر.. تبقى الثنائية كالباب الموارب.. تنتظر فسحة من ظروف القسر أو القهر لتثبت التوازن الدائم والتعددية، ولتبين أن الأدب لا يمكن أن ينسلخ عن الحياة ولا يمكن أيضاً أن يُقسر على لون معين.. لذلك فإنه مما يحسب للأدب الإسلامي أنه منذ القديم تجاوز هذه السفسطة، وأقفل الأبواب أمام الجدل الفارغ، وراح يتعامل مع الواقع من منبر الريادة والتوجيه، وفي الوقت نفسه يشغل مواقع الفن والجمال البياني.. فيحمل في نصوصه الشعرية والنثرية وظائف الدعوة والموعظة والإرشاد، وتهذيب النفوس، وصقل الأذواق.. ويهتم اهتماماً خاصاً بتعزيز القيم الإيمانية في الفرد، ويشحن النفوس بالعواطف الدينية، وتصوير مواقف الخوف ومواقف الرجاء، وتنشر نصوصه في أكبر شريحة من الناس. وتصبح جزءاً من محفوظاتهم وشواهدهم، وتخزنها كتب الأدب والتاريخ والتراجم والزهد والرقائق وغيرها■